المقدمة

تحيط بالإنسان ظواهر كثيرة تعترضه في حياته اليومية، وهذه الظواهر يرى فيها الباحث ميدانا للبحث العلمي والاكتشاف، ويجد نفسه مدفوعا بحب الاستطلاع الفطري لاستكشاف مجاهيلها وتفسيرها. وقد سعى الإنسان لكشف المجهول، وسلك في ذلك طرقا عدة، فقد عوّل حينا من الدهر على الظنون والحدس، وأحيانا أخرى على الخرافة والرجوع إلى الدجالين، وفي أوقات تنبه إلى وجوب تتبع أسباب تلك الظواهر المجهولة وتمحيصها للوصول إلى نتائج يقبلها العقل ولا تتعارض معه. وقد جاء القرآن الكريم بأصول المنهج الصحيح في البحث، القائم على تتبع الأسباب ودراستها ومقارنة الظواهر والربط بينها وتمحيص الأسباب صحيحها من خطئها، والتفكر، والاستدلال بمقدمات الأشياء على نتائجها.

تتركز فلسفة العلوم الاجتماعية حول أمرين، الأول: طبيعة الوجود (السؤال الأنتولوجي)، وهل وجود الأشياء على طبيعة واحدة؟، والثاني: طبيعة التعرف على هذا الوجود (السؤال الإبستيمولوجي)، كيف يتوصل البشر لإدراك تلك الموجودات، وبأي شكل؟. وهل تتساوى العلوم الاجتماعية مع العلوم الطبيعية في هذا المجال؟ (كريب، ١٩٩٢).

وقد أصبح البحث العلمي سمة من السمات الأساسية للعصر الحديث، في كل الميادين ومنها الميدان التربوي، وصار من المجالات الرئيسة لعمل الجامعات، بل أُنشئت له مراكز متخصصة تتعهده وتقوم عليه. وقد كان هناك ميل، مع اشتهار المنهج

الوضعي "العلمي"، إلى الاعتماد على الأرقام والإحصاءات في الحكم على العلاقات بين الظواهر سواء على شكل اقتران مجرد أو ارتباطي سببي؛ فكان هدف البحث هو التفسير السببي أو التنبؤ. لكن اشتهر في السنوات الأخيرة ما يخالف هذا المنهج ـ المنهج الكمي ـ في بحث الظواهر في العلوم الإنسانية، فقد ظهر توجه يرى عدم مناسبة التوجه الكمي في البحث، وأن من الواجب التركيز على الجانب النوعي من البيانات وليس الاقتصار على كمها فقط.

ويرجع بعض الباحثين (عرابي، ١٤٢٨) ظهور المنهج النوعي إلى القرن التاسع عشر الميلادي، إلا أنه خبا وتراجع في بدايات القرن العشرين، ليعود بقوة في نهايته. ويرى (Eisner, 2003) أن البحث النوعي لم يكن مشتهرا قبل عام ١٩٥٠م، لكنه بدأ يلفت الانتباه في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين الميلادي. وتُعد ثمانينيات القرن العشرين الميلادي وتسعينياته مرحلة إحياء لهذا المنهج في معظم الجامعات خاصة في أوربا وأمريكا. وبالرغم من أن هذا التوجه البحثي قد لقي إقبالا في مجالات كثيرة مثل التربية وعلم الاجتماع والطب، إلا أن مجال علم النفس، وهو الممثل الرئيس للمنهج الكمي التجريبي، استمر مترددا في الأخذ به، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث لم تصدر الجمعية الأمريكية لعلم النفس APA كتابا في البحث النوعي وهي الرائدة في البحث الكمي إلا عام ٢٠٠٣م، أبدى فيه المحررون قلقهم من تأخر أقسام علم النفس في الجامعات الأمريكية والأوربية في تدريس مقررات في البحث النوعي في برامجها، بحجة أنها لا تدخل في مظلة التوجه الوضعي الذي ظل علم النفس مواليا له وملتزما به (Camic, Rhodes, & Yardley, 2003). وخلال هذه الفترة كان هناك محاورات ـ حادة أحيانا ـ بين أنصار التوجهين، وكل توجه يحاول أن يقلل من قيمة و "علمية" الجانب الآخر.

وبنهاية عقد التسعينات هدأ الخصام بين المنهجين بالتوصل إلى اتفاق على جواز تنوع المنهجيات والتوجهات البحثية، وأن لكلٍّ مصداقيتها، وأنه يمكن الاستفادة من مزج المنهجين، وأن جودة البحث تكمن في القدرة على ربط طريقة البحث بسؤاله بدلا من التمسك بمنهجية معينة والتزامها بغض النظر عن سؤال البحث. وبدلا من انصراف أصحاب التوجه النوعي لنقد التوجه الكمي انصرفوا للنظر إلى داخل المنهج النوعي ذاته ليكتشفوا أن هناك تنوعا (ومنهجيات) داخل المنهج النوعي، بحيث يمكن القول الآن أن هناك من الجدال بين أصحاب التوجه النوعي مثلما كان بين أصحاب المنهج النوعي وأصحاب المنهج الكمي أو أكثر (Patton, 2002).

وتُرجع (Lichtman, 2010) تزايد الإقبال على البحث النوعي في مجال التربية بعد عام ١٩٩٠م إلى ثلاثة أسباب رئيسة: الأول، انفتاح مجال البحث التربوي لكافة الفئات مثل النساء والملونين؛ والثاني، تنامي عدم الرضا عن نتائج البحوث الكمية؛ والثالث، رغبة المعلمين في الحصول على دور أكبر في البحث التربوي، وميلهم إلى البحوث الإجرائية. فتعدد الرؤى في الظواهر التربوية (والاجتماعية بعامة) والتنوع في إداركها، وعدم قدرة المنهج الكمي في التعاطي مع هذا التنوع، ورغبة الممارسين في القيام بدور استكشافي إجرائي أكبر في بحث الظاهر التي تحيط بهم والتعامل معها أدى إلى انتشار البحث النوعي في الميدان التربوي.

ومن الملاحظ أن كثيرا من جامعاتنا العربية تعيش ركودا في هذا الجانب، فلا زالت في مرحلة المنهج الكمي، وربما أنها لم تشعر بعودة المنهج الكيفي الحديث، أو لم تستوعبه بعد. ورغم أن بوادر نقد التوجه الوضعي في البحث في العالم العربي ظهرت مبكرا، في مثل كتاب (المنهج العلمي في دراسة المجتمع ـ وضعه وحدوده) للدكتور حامد عمار، الذي نشر في مصر في كتيب صغير عام ١٩٦٤، إلا أنه فيما يبدو لم يجد

أي استجابة أو تفاعل. فالغالب على الكتب المؤلفة في البحث التربوي والمترجمة أيضا تبنيها للتوجه الوضعي والمنهج الكمي في البحث (أحمد، ١٩٩٩، صفحة ١٥٣). وعادة ما ينظر أصحاب التوجه الكمي في للبحث للأساليب النوعية على أنها لا تعدو أن تكون وسيلة أولية لتطوير الأداة الكمية للبحث (Charmaz, 2006, p. 5).

إذا أضفنا عدم استخدام المنهج النوعي إلى الضعف الذي يعتري مجال البحث العلمي حتى في المنهج الكمي، يتبين لنا حال البحث العلمي في مجال الدراسات الإنسانية والتربوية خاصة في الجامعات العربية. مما جعل أحد الباحثين يشتكي من ذلك مر الشكوى بقوله:

"ومما يؤسف له أنه رغم الاقتناع بمحدودية المنهج التجريبي الإمبيريقي[1] بصورته المتواترة لدينا وبعيوبه المنطقية والفلسفية والاجتماعية، نجد أنه يشيع إلى حد كبير في الدراسات الجامعية العليا وبحوث الماجستير والدكتوراه، دون التفات إلى شروطه وحدوده وقصوره، ولعله ليس من المبالغة أن نجد أكثر من ٧٥٪ من تلك البحوث تصطنع هذا المنهج (كذا) بل وتعتبره أكثر مناهج البحث (علمية وموضعية). وهذا على الرغم من أن كثيرا من نتائجه التي نحصل عليها يعتبر إما هزيلا منقوصا، أو أنه من قبيل تحصيل الحاصل..." (أحمد، ١٩٩٩) مقدمة الدكتور حامد عمار، ص ١٩.

---

(١) يفرق عبد الله إبراهيم في كتابه (البحث العلمي في العلوم الاجتماعية) ص ٢٤ بين البحث التجريبي والبحث الإمبيريقي، بحيث يرى أن البحث التجريبي يستخدم في العلوم الطبيعية، حيث يمكن الوصول إلى درجة عالية من الدقة والضبط، بينما البحث الإمبيريقي يكون في العلوم الاجتماعية. ويرى بنتش، في كتابه (إعداد خطة بحث فعالة) ص ٦ أن البحث الإمبيريقي هو ما يعتمد على الخبرة المباشرة والملاحظة، في مقابل البحث الذي يعتمد على معلومات قائمة على التنظير والتفكير المنطقي والعقلاني المجرد.

وقد يكون أحد أسباب هذا الضعف الاقتصار على المنهج الكمي ؛ فالمنهج النوعي يغني البحث ويعمقه ويصل به إلى مستويات تجعله ذا معنى أوضح للباحث ولمتخذ القرار، ويسهم في تطور النظريات.

ويعد البحث النوعي أداة مهمة لاستكشاف موضوعات أو مشكلات لم يسبق بحثها أو التعرف عليها. ويصور بعض الباحثين (Camic, Rhodes, & Yardley, 2003) الفرق بين البحث النوعي والبحث الكمي بتشبيه البحث الكمي بخريطة مكان ما، بحيث توضح بدقة مواضع الأماكن والعلاقة بينها، بينما يشبه البحث النوعي بشريط الفيديو المصور عن ذلك المكان بكل ما فيه من تركيز على مواضع محددة وتفاصيل وغنى في المعلومات وبيان لجماليات الموقع، تعتمد كثيرا على ذوق ورؤية حامل آلة التصوير.

وكما أشار (أحمد، ١٩٩٩) فإن الهدف من توظيف التوجه النوعي في التربية يجب أن لا يكون مجرد "ركوب للموجة" والأخذ بالجديد لأجل أنه جديد، بل لما يقدمه هذا المنهج من إضافة للبحث التربوي، فيجب أن يكون للتربويين نظرياتهم ومناهجهم الخاصة بهم في مجال البحث التربوي.

يهدف هذا الكتاب إلى بسط مفهوم البحث النوعي، وبيان خلفياته الفلسفية وأنواعه وأساليبه، لِيقيني أن منهج البحث النوعي يقدم للعلماء والباحثين في الميدان التربوي شيئًا كثيرا لا يقل، إن لم يفق في بعض الأحيان، عن البحث الكمي.

وهذا الكتاب لم يقم على مبدأ التضاد بين البحث النوعي والبحث الكمي، بل قام على مسلمة أن البحث النوعي منهج يوصل لمزيد من الفهم، أو الوصول إلى الحقيقة على أي مستوى كانت، فقد يكون في أوضاع بديلا عن المنهج الكمي وقد يكون مكملا له. فليس من فرضيات هذا الكتاب القول بأن البحث النوعي معارض

obeikandl.com

للبحث الكمي، كما قد تجده في بعض كتب أنصار البحث النوعي. بل قصارى ما يمكن قوله هو أنه أسلوب من أساليب البحث العلمي في العلوم الاجتماعية التي تخدم في استكشاف الظواهر التربوية، لكنه سعى جاهدا لأن يتفادى جوانب النقص التي ظهرت في المنهج الكمي، سواء على الجوانب النظرية أو الجوانب الإجرائية، ولذا توسعت إلى حد ما في القسم الأول لتوضيح الجوانب النظرية في هذا التوجه في البحث، وبيان كيف يمكن أن يفيد سواء مع البحث الكمي أو دونه.

جاء الكتاب في قسمين اشتملا على سبعة فصول.

الفصل الأول: الأساس النظري لهذا النوع من البحث، حيث تم فيه الحديث عن الرؤى الفلسفية والتصورات الفكرية التي أدت إلى ظهور هذا النوع من البحث. ويوضح أثر العوامل الفلسفية في ظهور هذا المنهج واستمراره.

الفصل الثاني: يتحدث عن ماهية البحث النوعي وتعريفه وأنواعه.

ويقدم **الفصل الثالث** خصائص البحث النوعي، وكيف يختلف عن البحث الكمي.

وفي **الفصل الرابع** يتم عرض تصميم البحث النوعي وما هي الإجراءات التي تمر بها عادة مشروعات البحث النوعي.

ويبسط **الفصل الخامس** أساليب جمع المعلومات في البحث النوعي، حيث يعرف بأهم تلك الأساليب ومميزات كل أسلوب.

وفي **الفصل السادس** يتم الحديث عن تحليل البيانات في البحث النوعي، ويشرح أساليب كل توجه من توجهات البحث النوعي. وعرضت في هذا الفصل برنامج (Nvivo) الشهير لتحليل وإدارة البيانات في البحث النوعي.

أما **الفصل السابع** والأخير فيتحدث عن كتابة تقرير البحث النوعي وإعداده للنشر.

ogeikandal.com

وجعلت في الأخير ملحقا بأهم المجلات العالمية ومواقع الإنترنت المتخصصة في البحث النوعي، وملحقا بالتعريف بالبرنامج الحاسوبي (Maxqda) لتحليل البيانات النوعية.

وهذا الكتاب موجه للباحثين سواء من الأكاديميين أو الممارسين التربويين (المعلمين والمشرفين التربويين ومديري المدارس) وكذلك لطلاب الدراسات العليا في ميدان التربية. وقد حاولت قدر المستطاع وضع نماذج لدراسات نوعية عند الحديث عن تصميم البحث النوعي وأنواعه لتكون أمثلة مساعدة لمن أراد عمل بحث نوعي.

وهنا ملاحظة مهمة وهي أن إيرادي لبعض المفاهيم (الفلسفية خاصة) التي تذكر في هذا المجال لا يعني بالضرورة موافقتي عليها، بل أنا أسوق ما يذكره علماء هذا الشأن وما يرد عادة في الأدبيات، والتزمت إلى حد بعيد الإطار النظري الذي تسير فيه غالب كتب البحث النوعي، وإن كنت أتحاشى ما أرى خطأه. أما ما دون ذلك، مما يقبل النقاش، فلا ألتزم مناقشته أو الرد عليه، بل أورده على أنه ما يقوله أصحاب هذا التوجه؛ لأن الدخول في جدل نظري في كتاب يريد التعريف بأساسيات البحث النوعي يصرف القارئ عن هدف الكتاب الأساس. مع يقيني أن مجال البحث النوعي وأسسه النظرية لازالت مجالا مفتوحا، ويمكن لثقافتنا العربية والإسلامية أن تسهم فيه بالشيء الكثير، وتفتح آفاقا فكرية لم تطرق في التوجه الغربي.

obeikandl.com